أدونيس في علاقته مع التراث بحثاً وإبداعاً

أ.د. عبد العزيز المقالح *

(١)

الصـورة الغالبـة على تفكيرنا؛ نحن العرب أن التراث هـو، هوية الأمة، وتلك صورة أضفاهـا واقع التخلف الطويل، وانقطاع ما بين عـرب العصور الزاهرة، وعرب عصور الانحطاط ، وماطرأ من تراجع في الفهم وقصور في الوعي، فالهوية أكبر من كلّ ماألَّفه العلمـاء والمفكرون، وأبدعه المبدعون، وما التراث سـوى جزء مهم وأصيل من مكونات الثقافـة التي صنعتها الهوية، ومـا هو- بتعبير آخر- إلاّ الإفصاح المكتوب عن الإحاطة المعرفيـة بما أوحت أو هجسـت بـه الهوية إلى وعي هـذا النفر من العلمـاء والمفكرين والمبدعين.

ومـن هنا، فإن الانشـغال بنقد الـتراث وتقييم موضوعاته واسـتلهام شـخصياته أو جمالياته في الأعمال الإبداعية شـأن إيجابي، وحق مشروع لكل من اسـتوعب منجزاته وامتلـك رؤية مخالفة أو إضافة خلاق. وليس ما وصل إلينا من الأسـلاف الأقدمين من اجتهادات ورؤى وأسئلة معرفية؛ نابعة من واقع زمنهم، يعدُّ بالنسبة لهم شأناً مقدساً ولا موضوعاً غير قابل للنقاش. كما لم يعد خافياً أن الإيغال في تقديس التراث قد أفضى إلى التحجر، وغيَّب الجوانب المضيئة فيه، وساعد على إغلاق الباب في وجه الاجتهاد، وحدَّ من مواصلة التجديد والإبداع.

والتراث- في تعريف بسـيط- هوكلُّ التجلّيات الفكرية والإبداعية ذات العلاقة بالإنسان في حياته الاجتماعية والسياسية والعاطفية، ومنه ما يخاطب العقل ويستثير التفكير، ومنـه مـا يخاطب العاطفـة والوجدان، وهو على اختلاف أسـاليب التعبير وأشـكالها، مكوِّن أسـاس في ثقافة الأمة ومحكوم بالقاعدة الإنسـانية التي تجعل من كل نشـاط إنسـاني خاضعاً لمنطق الخطأ والصواب، ولتغير الزمن وأهل الزمن، ومكان وجغرافية أهل الزمن. وقد سـبق لأحد الأعلام المسـهمين في تشـييد هـذا الموروث فكريـاً وفقهياً، أن أبـدع قاعـدة جوهرية امتدت دلالاتها إلى المعاصرين لـه، وإلى الذين جاؤوا من بعده، وجعلوهـا نقطة ارتكاز يحتكمـون إليها في خلافاتهم وحواراتهـم، وأعني بها القاعدة الشهيرة «رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب»[١]

* الأستاذ الأكاديمي وشاعر اليمن البارز .

لقد حسمت هذه القاعدة الجوهرية الموقف لصالح الاعتدال، وفتحت الباب واسعاً للاعتراف بوجود مناطق للصواب وأخرى للخطأ في كل ما ينتجه البشر، وما يجترحونه من اجتهادات وإبداعات. وقليل هم، في العصور القديمة، وفي العصر الحديث، الرجال الذين أطالوا الوقوف على تراثهم، وتعمَّقوا في موضوعاته، واستلهموا إيجابياته، فيما أنجزوه من فكر، وما أضافوه من إبداع، ويضع النقاد المنصفون الشاعر والمفكر«أدونيس»في الطليعة، من هذه القلة المعاصرة التي اهتمت بالتراث بحثاً وتقييماً واستيعاباً استلهاماً، وبالرغم من الهجوم الحاد الذي تعرَّض؛ وما يزال يتعرض له من بعض المخالفين له في الرأي والموقف، وممن لم يتبينوا بعد حجم جهده وسلامة توجهاته في سعيه الدؤوب نحو الكشف والتوسع في الإفصاح عن الجوانب المشرقة في تراثنا الفكري والإبداعي على السواء، فقد واصل اجتهاداته، ولم تثنه هذه المعوقات عن إنجاز مشروعه.

وقد لا أكون مخطئاً إذا ما ذهبت إلى القول بأن الشعر،هو الذي قاد أدونيس إلى هذه العناية الفائقة بالتراث، لم يكن همه الفكري أو السياسي وراء هذا الجهد الكبير، بل الشعر وحده. فقد كان يبحث عن ظلال الكلمة الشعرية في موروثنا الأدبي عبر العصور، منذ الجاهلية حتى العصر الحديث. وكان واعياً ودقيقاً في أحكامه التي أطلقها على الثابت والمتحوّل في الثقافة العربية، مستخلصاً إيجابيات كل عصر وسلبياته، وفق شروط ومعايير نقدية، يسبقها اطلاع شامل وعميق، تتحدد أبعاده في هذه الفقرة من مدخل الكتاب المعنون بالثابت والمتحوّل: «منذ بدأ اهتمامي بدراسة التراث العربي، عنيت على الأخص بمسألة الاتباع والإبداع، أو القدم والحداثة، وهو ما سميته الثابت والمتحوّل. وفي أوائل الستينيات، حين بدأت محاولتي لتقديم الشعر العربي القديم للقارئ العربي الحديث، عشت هذه المسألة تجريبياً وميدانياً، فقد كان عليّ أن أقرأ هذا الشعر قصيدة قصيدة، بل بيتاً بيتاً، وخرجت من هذه القراءة بديوان للشعر العربي، صدر في ثلاثة أجزاء في بيروت، شتاء ١٩٦٤م، وخريف ١٩٦٨م، تضمن فيما يتمثل في، أجمل وأغنى ما كتبه الشعراء العرب منذ الجاهلية حتى الحرب العالمية الأولى، لكنني خرجت كذلك بوجهة نظر، عرضتها في المقدمات الثلاث التي قدمت بها الأجزاء الثلاثة، خلاصتها أن الاتباعية توجه الذائقة العربية، وتسود النظرة العربية للشعر».[٢]

ندرك من هذه الملاحظة العميقة والدالة التي أوجز بها«أدونيس»تجربته في إعداد ديوان الشعر العربي، أنه قد أفاد من هذه التجربة، ومما قرأه وتابعه أثناء الاختيارات الشعرية، أن الحال لا يختلف كثيراً عنها مع الآراء والأفكار التي كتبها المفكرون العرب، وصار ما كتبوه تراثاً تناقله الأجيال، وتتفق من حوله وتختلف بوصفه جهداً إنسانياً واجتهاداً معرّضاً للقبول أو الرفض، شأن الشعر الذي يجمع بين الأجمل والرديء والأردأ، ويكشف لنا أدونيس في (الثابت والمتحوّل) عن ظروف الصراع التي أدت في النهاية إلى غلبة الثابت على المتحوّل، وما أسفرت عنه هذه الغلبة من جمود في بنية المجتمع العربي، ورضوخ للسائد، ومقاومة للتغيير، وكيف تحوّل الإبداع إلى بدعة والجمود إلى استسلام للأمر الواقع،

بكل سلبياته ونكوصه، وسيطرة كل ما هو اتباعي، وخاضع للتقليد والمحاكاة، ورافض للتجدد والتطور والإبداع.

وفي هذا الصدد لا يتردد أدونيس عن ملامسة تأثير أنصار الموروث السلبي على وعي الإنسان العربي، وذهنيته القابلة للتفتح في اكتساب المعرفة من خلال قمع تطلعاته، وتدمير طاقاته على الفهم والدفع به إلى أعتناق مواقف تناصب العداء لكل جديد، لا لشيء إلاّ أنه والكلام من هنا لأدونيس،«يرى في التحوّل ما يهدد موروثه الذي يرى فيه الكمال والعصمة، فما يتجاوز حدود معرفته المكتسبة، وبخاصة الدينية، يجعله في قلق وحيرة، ويؤدي كما يعتقد إلى ضلاله. وبهذا المعنى نفهم دلالة الموقف من البدعة في الماضي، وندرك في المرحلة الحاضرة الدلالة في صراع الأفكار داخل المجتمع العربي، بدءاً مما سمي بعصر النهضة حتى اليوم، فهو يكاد يكون استعادة للصراع الماضي بين قيم الثبات الماضوية وقيم التحوّل المستقبلية، حتى يبدو غالباً أنه يجري بالكيفية الماضية ذاتها، وبوسائلها العميقة والانعتاقية ذاتها تقريباً».[٣]

لقد كان الدين بوصفه قوة روحية جديدة ومتجددة، صرخة في وجه التقليد والجمود، ومصطلح (بدعة)في الثقافة الإسلامية ظل محصوراً ومقصوراً على كل ما يلامس ثوابت العقيدة في أركانها الخمسة، أما ما دون ذلك، فإن الإسلام في جوهره وحقيقته الدينية يحض على الإبداع، ويدعو إلى الابتكار، وهو ما اتفق عليه علماء الأمة ومفكروها المناهضون للجمود والداعون إلى الأخذ بأسباب التطور والاعتراف بالتغيير، وفقاً لسنن الكون ومنظوماته القائمة على ضرورة الانفتاح على كل آفاق الحياة. ويكون الإبداع من هذا المنطلق واجباً ومساراً أخلاقياً لكي لا تتجمد الحياة ويغدو الأحياء هياكل جامدة، تدور في واقع مكرر، وفي غياب كامل لكل رغبة في التجدد والتجديد، وهو ما قاومه وبشدة، العقل الحي وأثبته الجانب المشرق والمضيء من التراث، فيما تحقق له من تطبيقات على صعيد التطور الحضاري.

إن كتاب(الثابت والمتحوّل) للشاعر والمفكر أدونيس، هو واحد من أهم منجزاته الموصولة بالتراث بحثاً وتمثلاً وتقويماً وإبداعاً، فقد نجح في تقديم مشروع فكري عن الثقافة العربية في عصورها المختلفة، كما هي في ثباتها وتحوّلاتها، ومن أجل استلهام العناصر دائمة الإشعاع، القادرة على فتح الطريق أمام التحوّلات المستمدة من الحياة المعاصرة بكل ما يضطرب في جنباتها من رؤى وظواهر ثقافية مستقبلية لا تعرف التوقف أو الجمود . وتبقى الإشارة إلى اللغة الأدبية الرفيعة التي كتب بها أدونيس مقدمات الأجزاء الثلاثة من (ديوان الشعر العربي). ومقدمة كتاب (الثابت والمتحوّل)، فقد شكّلت هذه المقدمات إنموذجاً رفيعاً للكتابة النقدية المعاصرة في جمعها بين الأدبية والعلمية؛ شأن بقية كتاباته النثرية الآسرة برهافتها، وما يتوفر لها دائماً من تآلف بين الجمال والموضوعية.

وقبل أن نتخطى عتبة هذا البحث الموجز لا مناص لنا من أن نتذكر أن بعض القدماء ممن أسهموا في صنع هذا التراث، قد كانوا أكثر تسامحاً وصدقاً مع النفس، ومع الآخر، من بعض المعاصرين الذين تضيق بهم صدورهم وعقولهم تجاه أقل الملاحظات شأناً، والتي

يـرون فيها مخالفة جائرة لمـا يعتقدونه حقاً، ولـو قد اسـتوعب فقهاء عصرنا تلـك المواقف المسـتنيرة، التـي في ظلهـا نما التراث، ونشـأ الحـوار التسـامحي بـين الأشـاعرة والمعتزلة وغيرهـم مـن مفكـري عصـور الازدهـار، لما وصلت حال العرب والمسـلمين إلى ما هي عليه الآن، ولما دخلت الحياة العربية في ليل التخلف والاجـترار. ولعـل مـا يبعث على الرعـب الآن، ومنذ البدايـات الأولى للقرن الواحد والعشرين أن مسـاحة التسـامح قد ضاقت، وصارت في دائرة محاصرة مـن كل جانب، وبات الرفض المطلق لمفهـوم الرأي والرأي الآخر، هو سـمة المرحلة الراهنة، والمنطق السـائد بين الغالبية، بعد كل الجهود التي بذلها الرواد، وما أسسوه من مشاريع لتجاوز التخلف والجمود .

(٢)

كـان على (أدونيس) بعد أن استكمل قراءة الـتراث العربي شـعراً ونثراً، واسـتوعب ما في خزائنه من كنوز وجواهـر وأصداف وقواقع، أن يعكف على تقديم ما اسـتخلصه من أعماق تلـك الخزائن، وأن يسـير في هذا الكشـف على محورين، محـور يقدم فيه نماذج مما اختاره من الشـعر العربي عبر العصـور، فكان ذلك التجـلِّي المتفاعـل في ديـوان الشـعر العربي، بينمـا كان المحـور الآخـر متجلّيـاً في كتابـه (الثابت والمتحوّل) وسنبدأ إطلالتنا الموجزة في المحور الأول مع (ديوان الشـعر العربي) الذي استغرق جمعه وترتيبه وإعداده للنشر أعواماً ثمانية. فقد بدأ العمل به من أوائل السـتينيات وأنهاه في عام ١٩٦٨م، والديوان يجمع نماذج من الشـعر العربي ابتداء من العصر الجاهلي إلى أوائـل القرن العشرين. ومن الواضح تماماً أن الاختيـارات لم تكن عشـوائية، بل صدرت عـن وعي نقـدي متقـدّم، وذوق راقٍ، وهو ما دفع بعض الشعراء المعاصرين إلى محاكاته في اختيارات متواضعة، لم تجد الصدى المطلوب، ولم تحقق الأثر الذي تركته في الأوساط الأدبية، مختارات أدونيس التي توصل إليها بعد أن قرأ الموروث الشعري ـ كما يقول- قصيدة قصيدة وبيتاً بيتا.

وأدونيـس في الديوان لم يقدم نماذجاً مختارة من الشعر العربي فحسب، بل أرفقها بدراسات ثلاث هي مقدمات الأجـزاء الثلاثة التي عملت على رفع مستوى التذوق عند المتلقي، وأضاءت في قراءات بالغة الرهافة أجواء بعض القصائد وبعض الأبيات، إضافـة إلى التركيز على علاقة الشـاعر– والجاهلي على وجه أخص - بالمكان والزمان، وما تضمنه من وصف لمعاني البطولة والمغامرة والفروسية، ومن تفسير لمعنى الحب العذري كما تمثل في قصائد العشاق الشعراء، وكان أول سـؤال رأى أدونيـس الإجابة عنه في مقدمة الجزء الأول من ديوان الشـعر العربي، وهو عن السؤال المقاييس التي اعتمدها في هذه الاختيـارات ومما جاء في ذلـك قوله:«عن هذا السـؤال أجيب إن اختياري شخصي، الاختيار الفنـي مهما حاول الإفادة من قيم جمالية غير شـخصية تبقى، كمـا أرى شـخصياً حاجتها لآلاف الطرائـف الدينيـة، أو الظاهـرة المجذّرة أو العابـرة، حتى ليسـتحيل إخضاع حركتهـا إلى أية منهجية واضحة».[٤]

وأدونيـس يصـف عملـه هـذا في سـطور من المقدمة بأنه متحف شـعري، يساعد على إعادة الاعتبار للشـعر كفاعلية وإبـداع، ويمضي إلى القـول «هذا المتحف التراثي يدعم إيماننا نحن

المؤمنين بضرورة التحوّل وولادة قيم جديدة، ضد الذين يتمسكون بالذات- حرفاً وإعادة واجتراراً- فالديوان دليل تراثي على أن الشعر الباقي ليس الشعر الذي يعلّم أو يكون صدى للظروف والأوضاع الخارجية، وهو أيضاً دليل يدعم يقيننا بالفرق الكبير الذي قد يصل إلى درجة الفرق النوعي بين النظم والشعر».[٥] ذلك عن فاعلية التراث في المنجز الفكري لأدونيس الشاعر والمفكر، أما عن المنجز الإبداعي الجمالي المتفاعل مع التراث، فلا تكفي لمتابعته صفحات من مجلة أو كتاب. وسأكتفي هنا بالإشارة إلى أن الشاعر الجدير بهذه الصفة، رغم أنه أبن عصره وصدى لما وصلت إليه ثقافة هذا العصر من رؤى ومعارف، فإنه لا يصدر عن فراغ وانقطاع عن تراثه، كما أنه لا يعتمد في كتاباته الإبداعية على ما توحي به إمكاناته الذاتية وموهبته الخيالية الخاصة. بل يكون أيضاً محتاجاً إلى استلهام الحي والنابض من تراثه، وربما وجد نفسه تحت تأثير اللاوعي، يسترجع ما ترسب عن هذا التراث في مخيلته. لا عن طريق الاجترار وإنما عن طريق استيحاء بعض الشخوص والمواقف. وفي يقيني أنه ليس بين الشعراء العرب من يتمتع بمثل هذه الخاصية في أرقى تفاعلها وانسجامها وكثيرة هي القصائد والأعمال الشعرية التي صدرت عن الاستلهام ومنذ (أغاني مهيار الدمشقي) إلى (الكتاب - أمس - المكان - الآن) والشاعر في حالة تفاعل خلاق مع التراث الأدبي، وما يفتحه على طريق المبدع، من آفاق لا توصد وعوالم لا تُحد.

في(أغاني مهيار الدمشقي) يبدأ التفاعل التراثي من عنوان الديوان. ويتصاعد مع عدد من الشخوص الذين اتخذ منهم أقنعة أو رموزاً، يقدّم من خلالها تجربته الفريدة، ومن أجواء استلهام التراث في هذا الديوان مرائيه القصيرة، ومنها مرثية عمر بن الخطاب:[٦]

موت بلا وعدٍ ولا تعلّه/ يصرخ، والشمس له مظلَّه/ متى متى تضرب يا جبلّه؟

ويا صديق اليأس والرجاء/ الحجر الأخضر فوق النار/ ونحن في انتظار

موعدك الآتي من السماء

وهنا، مجتزأ من مرثيته للحلاج، أحد الشخوص التراثية التي استأثرت باهتمام الشاعر في محاولة للربط بين مآسي الإبداع في الماضي والحاضر:

الزمن استلقى على يديك/ والنار في عينيك/ مجتاحة تمتد للسماء

ياكوكباً يطلع من بغداد/ محمَّلاً بالشعر والميلاد .[٧]

ويبدو أن التعامل مع التراث إبداعياً كأكثر ما يكون وضوحاً وتمثلاً، في ديوان (الكتاب- أمس- المكان- الآن) ، فقد تماهى الشاعر أدونيس في هذا الديوان ...، وكاد يغيب في سيرة المتنبي وعصره، وفي مناخات ذلك العصر وأعاصيره السياسية والثقافية، وقد أوهمنا بأن مهمته اقتصرت كما تقول الكلمات المثبتة في صفحة الغلاف الداخلي على «تحقيق المخطوطة التي تنتسب إلى المتنبي»، وقد تم نشرها في ثلاثة مجلدات مبهرة ومثيرة بناءً وموضوعاً وتشكيلاً، وتكشف عن موهبة فيّاضة خلاّقة، وذهنية موسوعية قلّما تجد نظيرها في عصرنا، وربما في عصور سابقة.

ويبـدأ الكتاب/الديـوان بالنص الآتـي، وفيه يتحـدث الشـاعر بلسـان المتنبي عـن لحظة مولده:

أخبرت جدتي(والمحبـون والأصدقاء يثنّون)/
شيء هوى/ ماسحاً بيديه
تجاعيد أمي عندما كنت أخرج/ من حوضها/
بعضهم قال: هذا ملاكٌ
بعضهم قال: شـيطانه تراءى/ قبل ميعاده/
بعضهم آثر الصمت خوفاً وتقوى
كانت الكوفة الأليفة تدخل في غربةٍ.[٨]

ذلك ما قاله المتنبي عن نفسه، وهو يتحدث عن لحظـة الخروج إلى العالم، وما التقطه متخيلاً من أحاديث من حضروا تلك اللحظة، في كلمات قليلة ما سـيكون عليه حاله مـع الناس، حين يبـدأ ميلاده الآخـر ويدخل في زمـن الحصار الثلاثي، حصار المعجبـين وحصار الكارهين، وحصـار الغالبيـة الصامتة . أمـا أدونيس أو بالأحـرى المحقـق للمخطوطة ، فقد اسـتعار ذاكرة الراوي وكتب يقول:

في ذاكرة تلد الكلمات وتولد/ فيها/ تلد الأشياء وتولد فيها/ لا تعرف حداً
بين الماضي والحاضر/ ولد الشـاعر/ في رملٍ يعلو في صَعَدٍ/ في صحراء لغات ،
ولد الشـاعر/ عاش ولكن في ما يشبه تابوتاً/ سافر،/لكن في ما يشبه مقبرةً
في طقـسٍ لا تخلـو سـنة منـه/ طقـس للقتل(وقـد لا يخلـو يـوم)/ طقـس كان يعـاش كأن ريـاح
الجنة تسري فيه، ومحابرها/ والأقلام/ في هذا بالطقس، رأى الشاعر
وجـه الكـون، وراح يـضيء مـداه/ ويلقح باسـم الإنسان الشعر/ وكلُّ كلام/ ويلقح ما تلد الأيام.[٩]

الهوامش:

(١) منسوبة إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي.
(٢) أدونيـس: الثابـت والمتحـول، دار العـودة، لبنان- بيروت، ١٩٧٤م، ص٢٨.
(٣) المصدر نفسه: ص١٨.
(٤) المصدر نفسه: ص٢٨.
(٥) المصدر أدونيس: ديوان الشعر العربي، دار العودة، ١٩٩٤م، ص١٣.
(٦) المصدر نفسه: ص ١٠.
(٧) أدونيـس: أغانـي مهيـار الدمشـقي: الأعمـال الشعرية الكاملة دار العودة، ١٩٨٥م، ص٤٢٤ .
(٨) المصدر نفسه: ص٤٢٦ .
(٩) أدونيس: الكتاب، أمس المكان الآن، دار السـاقي، لبنان- بيروت، ١٩٩٥م، ص٩ .